

مجلة البحوث والدراسات

العدد (17) - السنة (11) صفر 1435 هـ - يناير (جانفي) 2014 م

محور بحوث العلوم الإنسانية



صفحة بيضاء

الوضع الثقافي في منطقة وادي ريغ خلال النصف الأول من القرن العشرين

بقلم

أ. معاذ عمراني (*)



ملخص

يتناول هذا المقال الوضع الثقافي في منطقة وادي ريغ بالجنوب الشرقي الجزائري خلال النصف الأول من القرن العشرين، ويهدف هذا المقال إلى إبراز مظاهر الحياة الثقافية في المنطقة بمختلف تجلياتها من طرق صوفية ومساجد ومدارس قرآنية ومزارات، مع التركيز على الدور الذي لعبته في حياة الفرد والمجتمع في تلك الفترة. الكلمات المفتاحية: وادي ريغ - الثقافة - التاريخ - القرن العشرين.

مقدمة

تعتبر منطقة وادي ريغ بالجنوب الشرقي الجزائري، جزء لا يتجزأ من الجزائر الفسيحة، وقد أولاه بعض الكتاب والباحثين أهمية خاصة في كتاباتهم وبحوثهم، سواء كتاب المدرسة الاستعمارية الفرنسية أو كتاب المدرسة الجزائرية الحديثة والمعاصرة، إلا أن السمة الغالبة على هذه البحوث هو أنها في مجملها ركزت على الجانب السياسي والعسكري خاصة أثناء الفترة الاستعمارية للجزائر، أما مختلف الجوانب الأخرى، كالثقافية والاجتماعية والدينية وغيرها، فقد كانت الكتابات عنها قليلة جدا إن لم نقل منعدمة، باستثناء ما كتبه مؤرخو المدرسة الاستعمارية الفرنسية، والذين كان هدفهم من

(*) أستاذ مساعد "أ" بقسم العلوم الإنسانية - كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية - جامعة الوادي.

وراء ذلك هو التعرف على المنطقة بأبعادها المختلفة، وهذا تمهيدا لاحتلالها فيما بعد، ثم السيطرة على المجتمع الريغي وإخضاعه بكافة الوسائل والطرق الممكنة. وانطلاقا مما سبق، فإننا في هذا المقال سنسلط الضوء على بعض الجوانب الثقافية في منطقة وادي ريغ أثناء الاستعمار، وهذا من خلال الإشكالية التالية: ما هو الوضع الثقافي الذي كانت تعيشه منطقة وادي ريغ خلال النصف الأول من القرن العشرين؟ وهل أثر هذا الوضع سلبا أم إيجابا على صيرورة الحياة بالمنطقة؟ وقد ركزت في معالجة هذا الموضوع على النقاط الآتية:

-التعريف بمنطقة وادي ريغ.

- الطرق الصوفية بالمنطقة.

- المساجد.

-المدارس القرآنية.

- القباب والمزارات.

- استنتاجات.

أولا- التعريف بمنطقة وادي ريغ:

يقسم الجغرافيون الصحراء الجزائرية الشمالية إلى قسمين، الصحراء المنخفضة (Bas Sahara) والصحراء المرتفعة، وعموما فإن منطقة الدراسة -وادي ريغ- تقع في قلب الصحراء المنخفضة، وهي منطقة ارتوازية غنية بالمياه الجوفية وهي التي كانت مهد نشأة الواحات⁽¹⁾.

ويقع إقليم وادي ريغ موضوع الدراسة في الشمال الشرقي من الصحراء الجزائرية في منخفض مستطيل الشكل، طوله 160 كم، وعرضه يتراوح ما بين 30 و40 كم، يبتدئ شمالا من عين الصفراء قرب بلدة أم الطيور، وينتهي جنوبا بقرية قوق⁽²⁾.

يحد الإقليم من الشمال، الجنوب الغربي لشط ملغيغ، ومن الجنوب ورقلة، ومن الشرق العرق الشرقي الكبير، ومن الغرب منحدر حصوي وهضبة ميزاب⁽³⁾، وأهم ما

يميز منطقة وادي ريغ من الناحية التضاريسية هو البساطة والاستواء، حيث تتميز بانحدار خفيف من الجنوب إلى الشمال، وبارتفاع عن سطح البحر مقداره 35م، مع مرتفعات بسيطة لا تفوق 300م⁽⁴⁾، وقد سمي ياقوت الحموي إقليم وادي ريغ بالزاب الصغير أو ريغ⁽⁵⁾، وسماه ابن خلدون بلاد ريغ أو أرض ريغ⁽⁶⁾، وسماه ابن سعيد أيضا ببلاد ريغة⁽⁷⁾، أما في الوقت الحاضر فيعرف بوادي ريغ كوادي سوف ووادي ميزاب⁽⁸⁾. وحسب ابن خلدون فإن سبب هذه التسمية يعود إلى ريغة أحد بطون مغراوة، وفي هذا الصدد يقول: «وأما بنو ريغة فكانوا أحياء متعددة... ونزل الكثير منهم ما بين قصور⁽⁹⁾ الزاب وواركلا، فاخترطوا قرى كثيرة في عدوة واد ينحصر من الغرب إلى الشرق، ويشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة، والأطم، وقد رف عليها الشجر ونضدت حوافيها النخيل، وانساحت خلالها المياه، وزهت بينابيعها الصحراء، وكثر في قصورها العمران من ريغة هؤلاء، وبهم تعرف لهذا العهد وهم أكثرها»⁽¹⁰⁾.

ويتكون إقليم وادي ريغ من حوالي 35 مدينة وقرية، ودشرة، تشكل في مجموعها واحات وادي ريغ، ونذكر منها، منطقة المغير التي تضم (أم الطيور، نسيغة، سيدي خليل، البارد، تندلة، والمغير أيضا) ومنطقة جامعة وبها (لغفيان، الزاوية، مازر، تقددين، سيدي عمران، تمرنة، سيدي يحيى، ناهيك عن جامعة) وكذا منطقة تقرت وتشمل (سيدي سليمان، لهريرة، مقر، القصور، غمرة، المقارين، تقرت، تماسين، قوق...)⁽¹¹⁾، وتعتبر مدينة توقرت عاصمة إقليم وادي ريغ⁽¹²⁾، أي العاصمة السياسية والعسكرية، أما العاصمة الدينية، فهي مدينة تماسين⁽¹³⁾ مقر الزاوية التجانية⁽¹⁴⁾.

وإذا انتقلنا إلى المصادر التاريخية التي تحدثت عن هذه المنطقة قبل الفتح الإسلامي، فإنها قليلة جدا إذ ليس لدينا المعلومات الصحيحة التي كانت تشير إلى طبيعة الحياة التي كانت سائدة في هذه الربوع، فالرومان لم يثبت أنهم احتلوا منطقة وادي ريغ، فهم في توسعهم لم يتجاوزوا منطقة الزاب، حيث اكتفوا بإنشاء معقل لهم في وادي جدي عند بسكرة⁽¹⁵⁾، فالصحراء لم تكن مغرية للرومان، فضلا عن كونها مجاهل مخوفة

بالأخطار، وليس فيها من السكان والموارد ما يسوغ المغامرة في رمالها إلى أبعد من حافتها الشمالية⁽¹⁶⁾، وهكذا فعلى الرغم من أن الطبيعة الصحراوية حالت دون تواجد روماني بشري في الواحات، إلا أن هذه الأخيرة كانت تمثل أسواقا هامة للتبادل التجاري مع الشمال الخاضع للسيطرة الرومانية⁽¹⁷⁾.

أما في فترة الفتوحات الإسلامية، فإن الإسلام انتشر في الصحراء عموما نتيجة لعوامل عديدة منها التجارة، وكذلك تيار الهجرة من الشمال إلى الجنوب، ويقصد به هجرة القبائل البربرية كزناته وصنهاجة⁽¹⁸⁾، وبعد دخول الإسلام إلى منطقة وادي ريغ انتشر المذهب الإباضي بقوة في هذه الربوع، خاصة في عهد الدولة الرستمية الإباضية، إذ كان أكثر سكان الجزائر في القرنين الثاني والثالث الهجريين على المذهب الإباضي⁽¹⁹⁾، وبعد أن خضع إقليم وادي ريغ لنفوذ الدولة الرستمية، خضع أيضا لسيطرة عدة دول، كملوك مراکش أو تلمسان، ثم لملوك تونس الحفصيين⁽²⁰⁾.

ثانيا- الطرق الصوفية:

عرف ابن خلدون التصوف بقوله: «أصله العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة» أما في الفترة الحديثة والمعاصرة، فقد لعبت الطرق الصوفية دورا هاما في تاريخ الجزائر خاصة في بداية القرن العشرين، إذ كان الانضمام إلى أي طريقة كان يضيفي على المرء شيئا من الهيبة⁽²¹⁾، وستعرض في هذا المقام إلى طرق صوفية أربع صنعت الحدث في منطقة وادي ريغ في هذه الفترة، وتتمثل في الطريقة التجانية والطريقة القادرية والطريقة الرحمانية والطريقة الطيبية.

1- الطريقة التجانية: هي طريقة صوفية ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر ميلادي، على يد مؤسسها الشيخ أحمد التجاني⁽²²⁾، والمكنى بأبي العباس أحمد محمد التجاني الشريف، ولد بعين ماضي قرب الأغواط سنة 1150هـ/1737م، وقد انتشرت هذه

الطريقة عبر مختلف مناطق الوطن، حيث أسست لها زوايا، أهمها زاوية عين ماضي بالأغواط، وزاوية تماسين بورقلة، وزاوية قمار بوادي سوف، وذلك بفضل القوافل التجارية الرابطة بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، فكثرت أتباعها ومقدموها، وامتد نفوذها إلى خارج الجزائر⁽²³⁾.

وقد كان للحاج علي التماسيني⁽²⁴⁾ دور كبير في نشر الطريقة التجانية بوادي ريغ⁽²⁵⁾، حيث انتشرت في تماسين وتوقرت وأعراش سعيد أولاد عمر والفتايت وأولاد سايح والعباضلية، أي أغلب مناطق وادي ريغ⁽²⁶⁾، وكانت زاوية تماسين هي الزاوية الأم بالإقليم، حيث عرفت شهرة واسعة في القرن العشرين خاصة في عهد الشيخ محمد العيد التجاني.

وخلال النصف الأول من القرن العشرين تطور عدد أتباع ومريدي الطريقة تدريجيا، ففي سنة 1908م بلغ أتباع التجانية بالمنطقة 3500 مريد⁽²⁷⁾، وفي نهاية الثلث الأول من القرن العشرين (1929م) تراوح عدد الأتباع من 5000 إلى 5500 مريد⁽²⁸⁾، وفي منتصف القرن العشرين (1950م) أصبحت التجانية أكثر تنظيما، فقد وصل عدد المريدين إلى 13440 منهم 2100 بتماسين مقر الزاوية التجانية، و8000 من أولاد سايح، و1800 من سعيد أولاد عمر، أما عدد المقدمين فقد وصل إلى 24 مقدم، منهم أربعة في تماسين، وخمسة في توقرت، وخمسة من سعيد أولاد عمر، وأربعة من أولاد سايح، أما عدد النواب فقد بلغ ثلاثة في كل من تماسين وسعيد أولاد عمر ولمقارين، وبلغ عدد الشواش عشرة منهم أربعة في تماسين، ويؤطر هؤلاء جميعا ثلاثة شيوخ في كل من تماسين وسعيد أولاد عمر وأولاد سايح⁽²⁹⁾.

ومن خلال هذه الإحصاءات نجد أن الطريقة التجانية هي الأكثر شعبية في وادي ريغ، إذ تركز ثقلها في المنطقة الجنوبية منه، وذلك في كل من تماسين وأولاد سايح وسعيد أولاد عمر، وهذا طبيعي إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الزاوية الأم (تماسين) تتواجد بجنوب الإقليم، وهذا ما يميز هذه الطريقة عن غيرها من الطرق الأخرى

والتي تتواجد زواياها الرئيسية خارج الإقليم.

2- الطريقة القادرية: تنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد (470-562هـ/1078-1167م)، ولقد انتقلت هذه الطريقة من المشرق العربي إلى المغرب العربي عن طريق الشيخ أبي مدين شعيب بي الحسين (500-594هـ/1104-1198م)، ومنها انتشرت أفكارها ومبادئها عبر مختلف بلدان المغرب العربي، ومنها الجزائر عن طريق الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي، الذي أسس أول فرع للقادرية سنة 1200م، ثم أسست فروعاً لها في الشرق والغرب والوسط والجنوب، كما كانت لها أوقاف كثيرة ترسل مع الحجاج إلى الزاوية الأم ببغداد⁽³⁰⁾.

وتحتل الطريقة القادرية المرتبة الثانية في وادي ريغ، إذ تنتشر في توقرت ولمقارين وجامعة والمغير، وكان لها زاوية بتوقرت لكنها تتبع الزاوية الأم بعميش (وادي سوف)، ففي مطلع القرن العشرين وصل عدد أتباعها إلى 2000 مريد، أما في أواخر الثلث الأول منه، فقد وصل أتباعها إلى 3500 مريد⁽³¹⁾، وفي منتصف القرن العشرين وصل عدد المريدين إلى 3250 شخص، منهم 1200 في توقرت و980 في لمقارين و500 في جامعة و550 في لمغير، وللقادرية نائب واحد بالمنطقة يقيم بمدينة توقرت، أما عدد المقدمين فقد وصل إلى 20، منهم سبعة بلمقارين وخمسة في توقرت وسبعة في جامعة، أما الشواش فقد وصل عددهم إلى ستة منهم ثلاثة في المقارين⁽³²⁾.

من خلال هذه الإحصاءات نلاحظ أن الطريقة القادرية وإن كان عدد أتباعها أقل من التجانية، إلا أنها الطريقة الوحيدة التي يتوزع ثقلها على كافة مناطق وادي ريغ (شمال، وسط، جنوب) مع أولوية في الانتشار بجنوب الإقليم (تقوت، المقارين) وهذا طبيعي، لأن المسؤول الأول عن هذه الطريقة (النائب) يوجد بمدينة توقرت مقر الزاوية القادرية بالمنطقة.

3- الطريقة الرحمانية: يعود أصل الطريقة الرحمانية إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمان الأزهري الزواوي الجرجري المولود حوالي 1720م، من قبيلة آيت إسماعيل، وتوفي

سنة 1793م المعروف يومئذ ببوقبرين⁽³³⁾، وأخذت هذه الطريقة تنتشر في أرجاء البلاد، وكان من بين تلامذته الشيخ محمد بن عزوز البرجي المولود سنة 1756م بواحة البرج قرب طولقة (بسكرة)، فأسس الطريقة بالجنوب وأصبحت الطريقة تنسب إليه، وصار أتباع الرحمانية يعرفون بالعزوزية، وفي سنة 1817م توفي الشيخ محمد بن عزوز البرجي ودفن ببرج طولقة⁽³⁴⁾، أما مقر الطريقة الرحمانية الرئيسي، فهو زاوية الهامل ببوسعادة⁽³⁵⁾

وتحتل الطريقة الرحمانية المرتبة الثالثة في وادي ريغ من حيث الانتشار، إذ تتواجد في توقرت ولقارين وجامعة ووغلانة، وكان لهذه الطريقة ثلاث زوايا بالمنطقة، فالأولى كانت بقرية عريانة قرب بوغلانة (ضواحي جامعة) وهي عبارة عن زاوية صغيرة تتبع مباشرة زاوية الهامل ببوسعادة⁽³⁶⁾، وقد استمرت هذه الزاوية إلى بداية الأربعينيات من القرن العشرين⁽³⁷⁾، أما الزاوية الثانية، فقد كانت موجودة بقرية تقديدين قرب جامعة في أواسط الثلاثينات من القرن العشرين، وكانت تسير من طرف سكان قصر تقديدين⁽³⁸⁾، وأنشأت الزاوية الثالثة في أواسط الأربعينيات من القرن العشرين بقرية تمرنة بالقرب من جامعة، وهي الزاوية الوحيدة للرحمانية التي بقيت بالمنطقة في هذه الفترة، حيث كانت تسير من طرف المسمى مسعود بوخزة⁽³⁹⁾.

في بداية القرن العشرين كان عدد أتباع الرحمانية (العزوزية) بالمنطقة ألف مريد⁽⁴⁰⁾، وفي نهاية الثلث الأول من القرن العشرين تضاعف العدد فوصل إلى ألفي مريد⁽⁴¹⁾، أما في منتصف القرن العشرين فقد وصل العدد إلى 1840 مريد منهم ألف في توقرت و350 في جامعة، كما كان للرحمانية نائب واحد بالمقارين و13 مقدم، منهم خمسة في جامعة وثلاثة في توقرت وأربعة شواش⁽⁴²⁾.

ومما سبق نلاحظ أن الرحمانية هي الطريقة الوحيدة التي كان أصلها جزائري، فقد كانت تنتشر في جنوب ووسط وادي ريغ (توقرت، المقارين، جامعة) وبدرجة أقل في شمال الإقليم، كما نلاحظ أن عدد أتباع الرحمانية لم يتطور كثيرا، وهذا إذا ما قارنا

الإحصائيات في أول القرن العشرين بمنتصفه، وربما يعود هذا إلى تواجد زوايا الرحمانية بوادي ريغ في مناطق نائية، ولا تضم عددا كبيرا من السكان (قرية عربانة، قرية تقددين، قرية تمرنة) وكلها توجد بمنطقة جامعة، أي في وسط الإقليم.

4- الطريقة الطيبية: نشأت الطريقة الطيبية في وزان بالمغرب الأقصى، حيث توجد الزاوية الأم وتدعى دار الضمانة⁽⁴³⁾ وكان مؤسسها هو الشيخ عبد الله الشريف المتوفى سنة 1089هـ، وقد تولى الزاوية من بعده أحفاده وأبنائه، فتولاها ابنه محمد بن عبد الله الشريف، وجاء بعده ابنه الثاني، ثم أخوه الطيب الذي ظل على الزاوية من 1127هـ إلى 1181هـ، وفي عهد هذا الأخير ازدهرت الزاوية ازدهارا عظيما، ومنذ ذلك الحين أصبحت تعرف بالطيبية⁽⁴⁴⁾، وقد أنشأت في الجزائر أول زاوية لهذه الطريقة في مدينة وهران سنة 1868م⁽⁴⁵⁾.

تعتبر الطريقة الطيبية الأقل انتشارا في وادي ريغ، بحيث يقتصر وجودها على مدينة توقرت لوحدها، إذ كانت لها زاوية صغيرة بها، ولم يكن لها عدد كبير من المريدين مقارنة بالطرق الأخرى، ففي بداية القرن العشرين كان عدد أتباعها مائة مريد⁽⁴⁶⁾، وفي نهاية الثلث الأول من القرن وصل العدد إلى 300⁽⁴⁷⁾، وفي منتصف القرن تراجع العدد إلى 175 مريد، مع وجود مقدمين اثنين للطريقة بمدينة توقرت⁽⁴⁸⁾.

وفي نظرنا، فإن قلة أتباع الطريقة الطيبية في وادي ريغ يعود إلى عدة أسباب منها أن الطيبية بقيت محصورة في طائفة واحدة، وهي فرقة المجاهرية، وهؤلاء كان عددهم قليلا مقارنة بغيرهم من الأجناس الأخرى المنتشرة في المنطقة، كما أن وجودهم ظل منحصرًا في مدينة توقرت المدينة دون سواها من المناطق الأخرى.

كما لا ننسى أن الزاوية الأم لهذه الطريقة تتواجد بالمغرب الأقصى، وهي بعيدة جدا عن وادي ريغ، وأقرب زاوية للطيبية تتواجد بالغرب الجزائري، وهذا بخلاف الطرق الصوفية الأخرى⁽⁴⁹⁾.

ثانيا- المساجد والمدارس القرآنية.

1- المساجد: تزخر منطقة وادي ريغ بالعديد من المساجد، والتي كانت منتشرة في مختلف أنحاء الإقليم، إذ لا تخلو قرية أو مدينة من ذلك، ومن أقدم المساجد في المنطقة، المسجد العتيق بتماسين، والذي مر عليه الرحالة العياشي⁽⁵⁰⁾ في شهر جانفي سنة 1663م، حيث وصف منارته، وقال بأن تاريخ بنائه يعود إلى سنة 817هـ/1414م⁽⁵¹⁾، أما في مدينة توقرت فإن أقدم مسجد هو المسجد العتيق الذي بناه السلطان الجلابي إبراهيم بن أحمد بن محمد بن جلاب سنة 1220هـ/1805م تكفيرا عن ذنب اقترفه في حق أخيه⁽⁵²⁾.

واستنادا إلى التقارير الفرنسية، فإن أغلب المساجد بالمنطقة بناها السكان بالاعتماد على أنفسهم، مع استعمال المواد المحلية الصنع في البناء، منها ما بني قبل الاستعمار الفرنسي، بحيث يعود البعض منها للقرن الثامن عشر، ومنها ما بني بعد ذلك، وقد كان تعدادها يزيد من قرن إلى آخر⁽⁵³⁾.

وفي النصف الأول من القرن العشرين اشتهرت منطقة وادي ريغ بكثرة مساجدها، ففي الثلث الأول منه (1927م) وصل عدد المساجد بالمنطقة إلى 93 مسجد، حيث تضم مشيخة توقرت العدد الأكبر منها بـ 32 مسجد، أما مشيخة تماسين -بما فيها بلدة عمر وسيدي راشد-، فتحتوي على 24 مسجد، وتضم مشيخة لمقارين 14 مسجد، بما فيها مقر وسيدي راشد والقصور، وتحتوي مشيخة وغلانة على 14 مسجد، بما فيها جامعة وضواحيها إلى غاية سيدي خليل، أما المغير ففيها ثلاثة مساجد⁽⁵⁴⁾، وبعد عقد من الزمن تقريبا (1936م) ارتفع عدد المساجد بالمنطقة إلى 165 مسجد، نذكر منها مشيخة توقرت التي كانت تضم 37 مسجد، و22 بمشيخة تماسين و67 بمشيخة لمقارين و16 بمشيخة جامعة و13 بمشيخة المغير⁽⁵⁵⁾.

وفي نهاية النصف الأول من القرن العشرين (ت1950م) ارتفع عدد المساجد بالمنطقة ليصل إلى 237 مسجد، منها 107 مسجد تقدم دروسا قرآنية، وقد بقي عدد

المساجد في التجمعات السكنية الكبرى، كلمقارين وجامعة والمغير على حاله باستثناء توقرت التي وصل عدد المساجد بها إلى 97 مع زيادة في عدد المساجد عند بعض القبائل، كسعيد أولاد عمر الذي بلغ عدد المساجد عندهم إلى ثمانية، أما العرب لغرابة، فقد وصل العدد إلى أربعة⁽⁵⁶⁾.

ونلاحظ من هذه الإحصاءات أن عدد المساجد بوادي ريغ كان في تزايد مستمر خلال النصف الأول من القرن العشرين، فمن سنة 1927م إلى سنة 1936م زاد العدد ب72 مسجد، ومن سنة 1937م إلى سنة 1950م زاد العدد ب72 مسجد أيضا، وهو عدد معتبر خاصة وأن هذه المساجد بنيت من طرف السكان، في الوقت الذي كانت تخضع فيه المنطقة للمستعمر الفرنسي، ومن جهة أخرى نلاحظ أن هذه المساجد كانت تتواجد في جنوب الإقليم (توقرت، تماسين، لمقارين) بنسبة فاقت الثلثين في بعض الأحيان، مع تواجد العدد الكبير منها في مدينة توقرت عاصمة الإقليم، وهذا طبيعي نظرا للكثافة السكانية المرتفعة بهذه المناطق، ثم أن هذه المساجد كانت في أغلبها مصليات، فقد كانت كل قبيلة وكل حي يتخذ مسجدا أو مصلى خاصا به.

2- المدارس القرآنية:

لم يعرف الإقليم المدارس المهيكلية والمعاهد المنظمة كما عرفها إقليم الزاب ووادي ميزاب، وإنما عرف نظام الكتاتيب القرآنية التي عمل السكان - منذ القديم - على إنجاحها بأموالهم وأفكارهم وجعلوا فرصة التعليم متاحة لجميع الفئات، إذ لا تكاد تخلو قرية أو دشرة من مدرسة قرآنية، هذه الأخيرة كانت بمثابة المدرسة الابتدائية التي يتعلم فيها التلميذ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، بالإضافة إلى بعض المتون المقررة، ويكون المسجد بمثابة الإعدادية أو الثانوية يتلقى فيها الطالب التفسير والشروح على تلك المتون التي حفظها بالكتاب⁽⁵⁷⁾.

كان التعليم القرآني في البداية بسيطا، ويقتصر على بعض المساجد في المنطقة، كالمسجد الكبير (العتيق) بتوقرت⁽⁵⁸⁾، وقد بدأت المدارس القرآنية في الانتشار بداية

من القرن العشرين، إلا أنها عرفت تطورا كبيرا وانتشارا واسعا في الثلث الثاني من القرن العشرين، إذ بلغ عددها في منطقة وادي ريغ 88 مدرسة، منها 26 في توقرت و16 في جامعة و11 في المغير⁽⁵⁹⁾.

ومع منتصف القرن العشرين أصبحت هذه المدارس أكثر عددا وتنظيما، فقد وصل تعدادها إلى 93 مدرسة ويدرس بها 2536 تلميذ، حيث تحتل توقرت المرتبة الأولى ب35 مدرسة و33 معلما و925 تلميذ، تليها جامعة ب20 مدرسة و19 معلم و644 تلميذ، ثم لمقارين ب20 مدرسة و20 معلم و234 تلميذ، أما تماسين، فتضم 12 مدرسة و12 معلم و480 تلميذ، ويوجد بالمغير ست مدارس وستة معلمين و280 تلميذ⁽⁶⁰⁾.

وكان تأثيث هذه المدارس القرآنية بسيطا، حيث يجلس الأطفال على حصائر أو أفرشة محدودة الامتداد في فصل الشتاء ولكل طالب لوح من الخشب⁽⁶¹⁾، بالإضافة إلى الطين الذي يمحى به اللوح بعد حفظ ما به من قرآن، أما أدوات الكتابة فهي بسيطة تحضر محليا وهذه المواد هي الصمغ المحروق مع طحنه ثم توضع كمية منه في قاع دواة مع شيء من الصوف والماء فيصير مدادا للكتابة، ويوضع لذلك قلم مبري من قصب الديس⁽⁶²⁾.

ومن أشهر المعلمين الذين اعتكفوا على التدريس بهذه المدارس خلال النصف الأول من القرن العشرين نذكر الطالب الصالح بالرزوق وخليل بالرزوق بالمغير، واستقدم أهل سيدي خليل الشيخ علي بن الصيفي السوفي والطالب إبراهيم بوسعادة، وبتقديدين اعتكف الطالب محمد بوليفة والطالب عمر العايز والطالب عبد الرحمان قادري يعلمون الناس ردحا من الزمن، وبسيدي يحيى نجد الطالب عبد الله بن المدني والطالب الطيب ابن المدني وغيرهم⁽⁶³⁾.

وفي جامعة اعتكف الشيخ الأخضر دغيش يعلم الأبناء القرآن الكريم، وهو من وضع حجر الأساس للمحاضر القرآنية بها، ثم خلفه الطالب عمر بن صغير والطالب بشير بن يوسف والطالب الأخضر بن ميدة السوفي والطالب أحمد فقيه وغيرهم، وإلى سيدي عمران انتقل الطالب الساسي السوفي فاعتكف يعلم في مسجدها، ثم جاء بعده الطالب علي المروكي والطالب بشير بالرزوق والطالب عمر فقيه وغيرهم، أما سكان

الوضع الثقافي في منطقة وادي ريغ خلال النصف الأول من القرن العشرين ————— أ. معاذ عمراني

سيدي راشد فاستضافوا الشيخ الساسي السوفي، وفي لمقارين اعتكف الطالب أحمد علاوة والطالب الأخضر بالعمودي يعلمان القرآن لأبناء البلدة⁽⁶⁴⁾.

أما في توقرت، فقد انتصب الطالب أحمد بن اعظامو يعلم القرآن، فكان له القسط الأوفر في تكوين عدد من حفاظ القرآن، الذين انتشروا بالمساجد أمثال الطالب بشير بكالة (الطالب بابا) والطالب جلول سواسي والطالب ابراهيم عنانو والطالب إبراهيم الرياحي، وفي الزاوية العابدية نجد الطالب إبراهيم بلحسن، وبحي تبسبت الطالب أحمد بن رزقية عرعار والطالب منصور عبد الجواد، وفي النزلة الطالب الأخضر النيلي وفي تماسين الطالب زيناتي الحاج وفي بلدة عمر الطالب لخضر النايي وفي عرش الفتايت الطالب إبراهيم بن الأكحل، أما عرش أولاد سايح، فنجد الطالب محمد بن الزاوي والتجاني طيباوي ومحمد السايح مكاوي وغيرهم⁽⁶⁵⁾.

ومما سبق نلاحظ أن سكان وادي ريغ قد اهتموا بتعليم القرآن الكريم وتحفيظه لأبنائهم، إذ لا تخلو قرية من القرى ولا دشرة من المداشر من محضرة لتعليم القرآن الكريم، واستقدموا المعلمين من كل المناطق خصوصا منطقة وادي سوف، وحظي معلمو القرآن في هذه المنطقة بعناية فائقة ومنزلة كبيرة، حتى أن الناس كانوا ينادونهم بكلمة «أنعم سيدي» وهي مبالغة في التقدير والاحترام.

ثالثا- المزارات:

كانت زيارة أضرحة الأولياء الذين يعتقد فيهم الولاية والصلاح والتقوى ظاهرة من الظواهر الاجتماعية الشائعة في الإقليم، فلقد اشتهرت منطقة وادي ريغ بكثرة الأضرحة والمزارات، فلا تكاد تخلو منطقة من ذلك، وخلال النصف الأول من القرن العشرين وصل عدد الأضرحة والمزارات بالمنطقة إلى 126 مزارا، منها 45 في منطقة توقرت بما فيها النزلة وتبسبت والزاوية العابدية وغيرهم، أما تماسين وبلدة عمر فيضمان 23 مزارا، وتحتوي لمقارين -بما فيها مقر وسيدي سليمان والقصور- على 30 مزارا، كما تضم جامعة وضواحيها 15 مزارا وتضم المغير 13 مزارا، وعرش أولاد سايح مزارا واحدة، نفس الشيء بالنسبة لعرش الفتايت والعباضلية وعرش سعيد أولاد عمر، أما

عرش لغرابية (رحمان وسلمية) فله مزارتان⁽⁶⁶⁾.

وقد تعلق الناس تعلقا كبيرا في منطقة وادي ريغ بالأولياء والرجال الصالحين، فالكثير من القرى والمداشر في الإقليم تحمل اسم ولي أو مرابط، ففي مطلع القرن العشرين كانت هذه القرى والمداشر تتوسط واحات النخيل بين أحضان ولي من الأولياء يعرف بصاحب البلاد أو "مولى البلاد" يعتقدون في بركته اعتقادا مطلقا، فلا يتزوج متزوج إلا بعد زيارته وطلب رضاه، ولا يحلق شعر صبي لأول مرة إلا داخل ضريحه، ولا يختتن إلا بعد التبرك به وطلب الحفظ من الله عنده، ولا يمرض مريض إلا ويرجو الشفاء عنده بدعواته الكامنة⁽⁶⁷⁾.

أما أهم الأضرحة والمزارات التي تشد إليها الرحال والتبرك بها هي قبة سيدي المخفي الموجودة بالورير وسيدي مبارك الصايم دفين المغير، وبجانبه سيدي بوحفص وسيدي سليمان برايح ببادية رحمان، وسيدي خليل بن سالم صاحب الزاوية المشهورة، وسيدي علي بن سلطان دفين البارد (تندلة) ورجال العريانة بوغلانة وسيدي يحيى وسيدي عمران وبقرهما مزار سيدي سعادة، وسيدي راشد بن حامد وسيدي سليمان بن الحاج وسيدي إبراهيم بن داود دفين غمرة، وسيدي علي بن كانون دفين لمقارين وسيدي العابد دفين الزاوية العابدية وسيدي محمد بن يحيى سلطان توقرت الروحي وسيدي فتية بالنزلة وسيدي الحاج علي دفين تاملاحت مؤسس الزاوية التجانية بالمنطقة وسيدي بوحنية وسيدي محمد السايح دفين بلدة عمر⁽⁶⁸⁾.

الخاتمة

لقد أظهرت الدراسة السابقة أن منطقة وادي ريغ عرفت أوضاعا ثقافية متنوعة ساهمت في إثراء الحياة الثقافية بالمنطقة، وتحلى ذلك فيما يلي:

- أعطى سكان المنطقة أهمية كبيرة، وعناية فائقة بالطرق الصوفية المختلفة التي كانت منتشرة في الجزائر وخاصة الطريقة التجانية والقادرية والرحمانية والطيبية، فأغلب فئات المجتمع الريغي آنذاك - إن لم نقل كلها - كانت مهيكلة في إحدى هذه الطرق، ونخص

بالذكر الطريقة التجانية التي عرفت رواجاً كبيراً، وهذا طبيعي إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنها الطريقة الوحيدة التي تتواجد زاويتها الأم بالمنطقة (مدينة تماسين)، وعموماً فإن الانتماء إلى الطرق الصوفية في تلك الفترة كان يعتبر موضة يتبعها أغلب الناس.

- حاول الاستعمار الفرنسي في الجزائر عرقلة المؤسسات الدينية والقضاء عليها قدر المستطاع، إلا أن سكان المنطقة تحدوا المستعمر، وحملوا على عاتقهم بناء المساجد وتشبيدها بإمكانياتهم المادية البسيطة، على الرغم من الظروف السيئة التي كانت تعيشها المنطقة، وهذا بشهادة وثائق الإدارة الاستعمارية، إذ كان عدد المساجد خلال النصف الأول من القرن العشرين يزداد من عقد لآخر.

- لم يكتفِ سكان المنطقة بتشبيد المساجد، والتي كان الغرض منها إقامة الشعائر الدينية بالدرجة الأولى، بل ألحقوا بها مدارس قرآنية، فما يقارب نصف عدد المساجد كان بها مدرسة قرآنية، وهذا يدل على مدى اهتمام السكان بالعلم، خاصة وأن المؤسسات التعليمية آنذاك لم تكن في متناول الجميع.

- أراد المستعمر الفرنسي أن ينشر الجهل والبدع والخرافات في المجتمع الريغي، فشجع الناس على إقامة الأضرحة والقباب والمزارات حتى قدر عددها بالعشرات، ونافست المساجد في تعدادها، فكل قرية أو دشرة أو مدينة إلا ولها ولي خاص بها تلجأ إليه وقت الشدائد والمحن، أو تتبرك به في الأفراح المختلفة، ووصل الجهل بالناس أنهم كانوا يتبركون ببعض القباب الفارغة، والتي لم تكن تضم أي رفات بين جنبتها.

الهوامش والإحالات:

¹ Edmont Sergent, **Le Peuplement Humain du Sahara**, Institut Pasteur d'Alger, T.31, Alger, 1953, p.23.

² عبد الحميد قادري، **التعريف بوادي ريغ**، د.ط، منشورات جمعية الوفاء للشهيد، تقرت، د.ت، ص.1.

³ أبو عبد الله محمد الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، د.ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،

2002م، مج.1، ص.85، وكذلك:

Bouزيد Touati « **les potentialités hydrique et la phoeniciculture dans la vallée de l'oued Righ , Bas-Sahara algérien** » thèse de doctorat de 3eme cycle laboratoire de géographie physique université de Nancy, Février ,1986, P.13.

⁴ Rouvillois Brigol, **Oasis du Sahara Algérien**, Institut géographique National, Paris,

1978, p.09.

⁵ معجم البلدان، ط.1، تحقيق: فريد عبد العزيز جندي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1410هـ / 1990م، ص.129.

⁶ تاريخ بن خلدون، د.ط، بيروت: دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، مج.7، ج.13، ص.98.

⁷ ابن سعيد علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل العربي، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970م، ص.190.

⁸ فادري، المرجع السابق، ص.1.

⁹ يختلف مفهوم القصر هنا عن المعنى الشائع وهو البناية الفخمة، فالقصر في المناطق الصحراوية هو عبارة عن قرى محصنة أو بالأحرى هو عبارة عن تكتلات سكنية متراسة ومتلاحمة فيما بينها تقطنها مجموعات بشرية تنتمي إلى أصول عرقية أو طبقات اجتماعية مختلفة، ويحيط بهذه التكتلات أحيانا سور سميك، للمزيد من المعلومات يراجع: علي حملاوي، نماذج من قصور منطقة الأغواط، د.ط، م.و.ف.م، الجزائر، 2006م، ص.18.

¹⁰ تاريخ ابن خلدون، مج.7، ج.13، ص.98.

¹¹ معاذ عمراني "أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ من بداية القرن التاسع عشر إلى سنة 1962م، دراسة سياسية واجتماعية"، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1422هـ-1423هـ/2002م-2003م، ص.90.

¹² تقع مدينة توقرت في الجنوب الشرقي الجزائري، حيث تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 620 كم، وقد تعددت الروايات حول تفسير كلمة توقرت، فهناك من ينسبها لامرأة جميلة اسمها البهجة، وهناك من يقول أن معناها هو القمر أو الجوهرة، لكن الراجح أن كلمة توقرت مصطلح أمازيغي ومعناه المنطقة القاسية والتي تصعب فيها الحياة، وللمزيد من المعلومات حول مصطلح توقرت، يراجع: معاذ عمراني، «البعد الأمازيغي في أساء مدن وقرى وادي ريغ ووادي سوف بالجنوب الشرقي الجزائري» أعمال الملتقى الوطني حول التخطيط اللغوي أيام 03 - 04 - 05 ديسمبر 2012م، مخبر الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري بتيزي وزو.

¹³ تبعد تماسين بحوالي 50 كم جنوب توقرت، وقد تعددت الروايات حول تسمية تماسين، لكن الراجح منها هو أن كلمة تماسين مصطلح أمازيغي ومعناه المنطقة التي تكثر بها المياه الجوفية، للمزيد من المعلومات يراجع: عمراني «البعد الأمازيغي» مرجع سابق.

¹⁴ Zaccane (J) de Batna à Tougourt et au Souf, Paris: librairie militaire, j.dumaine, 1865, p.224

¹⁵ أحمد الشتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، دائرة المعارف الإسلامية، مراجعة: محمد مهدي علام، دار المعرفة: بيروت، د.ت، مج.10، ص.319.

¹⁶ إسماعيل العربي "مسالك الإسلام والعروبة إلى الصحراء الكبرى" في الثقافة، ع.62، السنة 11، ربيع الثاني، جمادى الأولى والثانية، 1401 هـ / مارس - أبريل 1981م، ص.43.

الوضع الثقافي في منطقة وادي ريغ خلال النصف الأول من القرن العشرين ————— أ. معاذ عمراني

¹⁷ محمد البشير شنيقي "التوسع الروماني نحو الجنوب الجزائري، وآثاره الاقتصادية والاجتماعية" في الأصالة، عدد خاص، ص.24.

¹⁸ المرجع نفسه، ص.43-44.

¹⁹ أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ط.2، دار الكتاب، الجزائر، 1382هـ / 1963م، ص.20.

²⁰ مرمول كربخال، إفريقيا، ج.3، تر: محمد حجي وآخرون، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1408-1409هـ / 1988-1989م، ص.165.

²¹ Meynier Gilbert, L'Algérie Révélée, lib, Droz, Genève 1981, p.

²² J.Scelles Mille, Contes Sahariens du Souf, Maisonneuve et La Rose, Paris, 1964, p.13

²³ حرازم الفاسي، جواهر المعاني وبلوغ الأمان في فيض سيدي أبي العباس التجاني، ج.1، دار الجيل، بيروت، 1988م، ص.23.

²⁴ ولد الحاج علي التماسيني بتماسين سنة 1180هـ / 1767م، حيث نشأ على التصوف، وقد ذهب الحاج علي عدة مرات لزيارة الشيخ أحمد التجاني، مؤسس الطريقة في عين ماضي (الأغواط) ثم في فاس، وفي إحدى المرات ذهب لأخذ الوصية منه ليكون هو حامل البركة بعده في الجزائر، وقد بنى الشيخ علي زاوية تماسين سنة 1220هـ / 1805م، في ضاحية تعرف «بتاملاحت» أصبحت فيها بعد قبلة للمريدين والزوار من جهات عديدة (وادي سوف، الجريد التونسي...) وفي سنة 1260هـ / 1844م توفي الحاج علي التماسيني بعد بلوغه سن الثمانين، للمزيد من المعلومات، ينظر: سعد الله، ج.4، مرجع سابق، ص.219.

²⁵ Le colonel Nollat, L'Algérie en 1882, librairie militaire, Paris, p.100.

²⁶ Archives d' Outre Mer (A.O.M.), B.N°23H99, Rapport Annuel, 1908.

²⁷ Ibid.

²⁸ Ibid, Rapport, 1929.

²⁹ Ibid, Rapport, 1950.

³⁰ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ص.4.

³¹ A.O.M., B.N°23H99, Rapport Annuel, 1929.

³² Ibid, Rapport, 1950

³³ أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج.2، م.و.ف.م، الجزائر، 1991م، ص.298-302.

³⁴ عبد الحليم صيد "محمد بن عزوز شيخ العلماء والمجاهدين" في الثقافة، ع.115، الجزائر، 1997، ص.97-113، وأغلب الناس في منطقة وادي ريغ كانوا يستعملون اسم العزوزية بدل الرحمانية، وذلك نسبة لسيد محمد بن عزوز.

³⁵ A.O.M., B.N°23H99, Rapport Annuel, 1949.

³⁶ Ibid, Rapport, 1908.

³⁷ Ibid, rapport, 1940

ولقد توقفت التقارير الفرنسية عن ذكر اسم هذه الزاوية بعد سنة 1940، ونعتقد أن هذه الزاوية قد

توقفت عن النشاط نتيجة لهجرة السكان من قرية عريانة مقر هذه الزاوية، وقد كان هناك مثل شائع في المنطقة جاء فيه: «الخلاء لعريانة والعمارة لجامعة ووغلانة» ويقصد به أن قرية عريانة ستصبح خالية على عروشها، أما جامعة ووغلانة، فسوف تعمران بالناس وفعلا كان الأمر كذلك.

³⁸ A.O.M, B.N°23H99, Rapport, 1936.

³⁹ Ibid, Rapport, 1945

ربما تكون زاوية تمرنة قد عوضت الزوايا الرحمانية الأخرى بالمنطقة، والتي اندثرت كزاوية عريانة وزاوية تقدددين.

⁴⁰ Ibid, Rapport, 1908.

⁴¹ Ibid, Rapport, 1929.

⁴² Ibid, Rapport, 1950.

⁴³ P.Passager, **Ouargla Sahara Constantinois**, Institut pasteur d'Algérie, 1957, p.133.
⁴⁴ سعد الله، ج.1، مرجع سابق، ص ص. 515-516.

⁴⁵ بوداوية بلحيا، **التصوف في بلاد المغرب العربي**، ط.1، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص.62.

⁴⁷ A.O.M, B.N°23H99, Rapport, 1929.

⁴⁸ Ibid, Rapport, 1950.

⁴⁹ لم يعد لهذه الطرق الصوفية اليوم أي تأثير بمنطقة وادي ريغ، باستثناء التجانية التي مازال لها العديد من الأتباع خاصة في جنوب الإقليم (تماسين وتوقرت) كما ظهرت طريقة أخرى في سبعينيات القرن العشرين تسمى بالهبرية، ولها زاوية بتوقرت ومسجد خاص بها، ومعظم أتباعها من المجاهرية والذين كانوا في السابق يتبعون الطريقة الطيبية.

⁵⁰ هو أبو سالم عبد الله محمد بن بكر بن سعيد العياشي، ولد في شعبان 1037هـ/1628م بإقليم تافلاست جنوب المغرب الأقصى، ونشأ في أسرة علم ووجهة، فدرس في مدينة فاس حيث تحصل على عدة إجازات، ترك العياشي العديد من التصانيف من بينها رحلته المعروفة «ماء الموائد» هذه الأخيرة التي تعتبر مادة غنية عن المجتمع العربي في القرن السابع عشر ميلادي، توفي العياشي سنة 1090هـ/1681م، للمزيد من المعلومات ينظر: ناصر الدين سعيدوني، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين**، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999م، ص ص. 249-250.

⁵¹ أبو سالم عبد الله العياشي، **ماء الموائد**، ط.1، فاس-المغرب الأقصى، 1316هـ/1898م، ص.49.

⁵² Feraud, «Note historique sur la province de Constantine» **Revue Africaine**, N23, p.296.

⁵³ A.O.M, B.N°16H41.

⁵⁴ Ibid.

⁵⁵ Ibid.

⁵⁶ A.O.M, B.N°23H99, Rapport 1950.

⁵⁷ قادري، **التعريف بوادي ريغ**، مرجع سابق، ص.50.

⁵⁸ كانت الدراسة بالمسجد الكبير بتوقرت تبدأ من الساعة السابعة إلا ربع إلى غاية الثامنة صباحا وفي

المساء من الساعة الخامسة إلى الساعة السادسة والنصف، مع أخذ عطلة أسبوعية يومي الخميس والجمعة، أما العطلة السنوية، فتبدأ من شهر جوان إلى شهر جويلية، للمزيد من المعلومات حول نظام التدريس بهذا المسجد ينظر: A.O.M, B.N°23H99, Rapport, 1908, 1927, 1932

⁵⁹ Ibid, Rapport, 1936.

⁶⁰ Ibid, Rapport, 1950.

⁶¹ Ahmed Nadjah, *Le souf des Oasis*, Ed de la maison des Livres, Alger, 1971, p.108.

⁶² André Voisin, *Le souf monographie d'une région saharienne*, 1985, p.190.

⁶³ قادري، وادي ريغ تاريخ وأمجاد، ط1، ج1، دار الأوطان للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص 328-329.

⁶⁴ المرجع نفسه، ص 329-331.

⁶⁵ المرجع نفسه، ص 331-335.

⁶⁶ A.O.M, B.N°16H41.

⁶⁷ قادري، وادي ريغ تاريخ وأمجاد، ج1، مرجع سابق، ص 241.

⁶⁸ المرجع نفسه، ص 36.

Cultural situation in oued righ area during the first half of the twentieth century

Mouadh OMRANI *

ABSTRACT:

This research deals with the cultural situation in oued righ area in the southeast of Algeria during the first half of the twentieth century. This article aims to highlight the cultural aspects of life in the region of mystical ways, mosques and koranic schools, with a focus on the role played in the life of the individual and society in that period.

Key words: oued righ - Culture - history - the twentieth century.

- Maître-assistant A : Faculté des sciences sociales et humaines, Université El-oued – Algérie.

صفحة بيضاء

صفحة بيضاء